الحسناء

الجزء الخامس — المجلد الاول

بيروت في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٩٠٩

مدام دي سفينيه

M^ME DE SÉVIGNÉ

نشأت كالزهرة بين الاشواك ولم تحدّثها شوكة ابداً . عاشت شريفة فاضلة كريمة الاخلاق عفيفة حرّة . آثرت العلم والادب على اللهو والطرب وفضلت معاشرة العلماء والادباء على الغاوين والمتخنثين . صانت نفسها عن التهتك والخلاعة حتى في اوضح حالات انتشارهما بين وجيهات تلك الايام وحافظت على نزاهتها فلم تتلوث بادران اترابها ولا تشوهت بمفاسد عصرها . بل كانت آنسة رزينة وزوجة امينة واماً توفرت فيها سجايا الامومة . تعمقت في العلم ونبغت في الكتابة وصار لها فيهما شأن يذكر واشتهرت برسائلها الى كريمتها الكونتس غرينيان . وكان مقامها رفيعاً في الهيئة الاجتماعية ومجلسها دائماً مزدانا باعاظم الناس واكابرهم . نفعت البشرية نفعاً عميماً وخدمت الانسانية خدماً جليلة كثيرة . ولها اليد الطولى في تمدين العالم كما قال الكاتب لامرتين ويستحق اسمها ان يقرن باسم سقراط وهوميروس وملتون وبوسيه وفنلون

فاكرم بها من سيدة نبيلة . بديعة الجمال بوجه ابيض صبوح وشعر اشقر

صدام دي سفينيه

Mme de Sévigné

غزير وعين زرقاء وجفن ذابل . يتلألأ محياها بملامح الذكاء والادراك مع اللطف والمهابة فيؤثر في النفوس ويأخذ بمجامع القلوب . وقد خلبت الباب الباريزيين وتملكت عواطفهم فاعتبروها من ابدع غادياتهم الحسان واحترموها وكرموها غاية الاكرام . واحسن الشاعر لافونتين بوصفه اياها وقوله لها — اذا اغمضت عينيك فالله اعلم واذا فتحتهما فامه) وكل ذلك لانها اضافت الى جمالها الحسي جمالاً معنوياً ابهى وازهى وقرنت حسنها المنظور بحسن معقول افضل واسمى . اذ تعلمت من اللغات اللاتينية واليونانية والايطالية والاسبانية مع لغتها الفرنسوية ومن العلوم كلّ ما كان شائعاً بين الطبقة الراقية في فرنسا وطالعت اشهر المؤلفات الادبية والتاريخية وتهذبت بالمبادئ الجيدة وابدت من التعقل في القول والعمل ما ادهش العقلاء ومن سعة المعارف ووفرة الاطلاع ما شهد لها به العلماء ومن الوداعة والرقة والحشمة ما فتن عقول الادباء حتى ان الفلاسفة والحكماء كانوا معجبين بها لا سيما لما كانت عليه من الفضائل الزوجية والامية التي يجب ان تكون حلية كل زوجة وشعار كلّ امّ

هذه هي مدام دي سفينيه ذات الشرف الرفيع والمجد الخالد . ابوها البارون دي رابيتان شانتال . وامها ماري كولانج كريمة القديسة فريميو مؤسسة عيد الزيارة لمريم العذراء . وزوجها المركيز هنري دي سفينيه احد امراء ولاية بريتانيا ومن ضباط الملك لويس الرابع عشر

ولدت في ٥ شباط سنة ١٦٢٧ في قصر بورمبلي قرب سمير في ولاية بورغونيا ولم تمتع ببرأى والدها كثيراً بل لم تستطع ان تعرفه ايضاً لانه قتل في محاربة الانكليز عندما احتلوا جزيرة ري قبل ان تبلغ من عمرها السنة الاولى وفقدت امها في السنة السادسة فحرمت تربيتها فرباها خالها على الفضيلة والتقوى

وكان راهباً رئيس دير وعلمها كاترابها بنات الاشراف فكانت تقرُّ بفضل وصايته عليها وتدعوه بلسان اقرارها بجميله الصالح كثيراً وهو بحق كان ينال احترامها اذ مع عنايته بتهذيبها بنفسه قد اختار لها اشهر المعلمين لتعليمها كمناج وشابلين وغيرهما من المشاهير وبالنظر لنجابتها واستعدادها الطبيعي تقدمت في دروسها تقدماً باهراً ونجحت كثيراً حتى استطاعت في حداثتها تعلم الخمس لغات مع كثير من العلوم

فلما اشتهر امر ذكائها واقتدارها وتمكنها من الآداب والعلوم تسهل لها سبيل الدخول الى البلاط الملوكي وهو في معالي مجده وعظمته وسؤدده وهي في الخامسة عشرة من العمر فقط وذلك على عهد الملك لويس الرابع عشر · فكانت كيفاً سارت قبلة الانظار ومهما قالت محجّ الاسماع · فتهافت عليها الشبان وغارت منها الحسان وكثر طلابها من الامراء والوجهاء ودعاها سوء الحظ الى قبول المركيز دي سفينيه زوجاً لها قبل ان تثبت خلاعته وتهتكه فاقترنت به وعمرها سبعة عشر عاماً وهو حوالي العشرين ولم تدر انه لا يعبأ بعقلها وفضلها بل يؤثر عليها عشرة المتهتكات بعد ان تظاهر امامها بالخلال الحميدة حتى توهمتها متأصلة فيه · وعبثاً كان كلامها معه في بادىء الامر بهذا الشأن فانه لم يراعِ عواطفها الكريمة ولا احترمها حق الاحترام كما يليق بها بل ظلّ مندفعاً بطياشة الفتوة ونزق الشباب الى حيث يأنف من بلوغه الزوج العاقل ويعرّض الزوجة الى اخطار النكوث بالعهد الزوجي والحنث بيمين الامانة والازدراء برابطة الزواج المعتبرة سراً مقدساً لا انفكاك لعقدتها عند المسيحيين الا بموت احد الزوجين او لاسباب يقبلها الشرع والا فهناك الخيانة والعار · انما ليست الزوجات على حدّ سواء فان الامينة منهنّ والعفيفة تفضل القهر والشقاء والموت على

مجاراة زوجها الخائن واتيان ما يأباه الضمير ويونب عليه · وذلك كما كانت تفعل المركيزة دي سفينيه الامينة العاقلة

سيدة مترفة صحيحة الجسم سريعة التأثر تربت في مهد الدلال وتوسدت اسرّة الحرير وتنعمت بالمآكل والمشرب والملبس وتوفر فيها الجمال ومعها المال وعاشت بين قوم منهتكين مملقين مضلين مرائين لا قدوة حسنة لها بنسائهم يليق الاقتداء بها ولا عفة برجالهم تمكن من الوثوق بهم ويكفي لوصفهم انهم من حاشية الملك لويس الرابع عشر المشهورة بالخلاعة والتهتك والدهاء والجمال · سيدة بهذه الاحوال يهملها زوجها ويعرض عنها الى الغواني المتهتكات فيتلف صحته وينفق امواله ولا يهتم الا بملذاته الدنيوية فتظل هي مقيمة عَلَى ولائه امينة له تراف به كالام الحنون وترشده بتجرد واخلاص وتسامحه بعزة نفس وتحافظ عَلَى عهدها له حتى بعد مماته · فلماذا كل ذلك يا ترى ؟ ومن اين لها هذه القوى ؟ هو العقل والعلم والفضيلة والادب وهي النفس الشريفة والارادة القوية والنزاهة العظمى والمحبة الصادقة والعاطفة السامية والفطرة الطيبة والاخلاق الكريمة كلها امور تفعل عجائب اذا اجتمعت في انسان · ومن لا تصدق تجرّب

تزوجت البارونة ماري دي رابيتان شاتال المركيز هنري دي سفينيه قبل ان تختبر اخلاقه جيداً حاسبة نفسها تلج ابواب النعيم فاذا منه جزاء تسرعها واغترارها وعانت من مضض تهتكه ما لا تحتمله الا المرأة الفاضلة · وضعت ثقتها برجل لا يستحقها واحبته بامانة وشرف فلم يكترث لها وآثر عليها غادات لسن اهلاً لان يقفن امامها فعاملته بالرفق فتمادى في غيه فطالبته بواجباته بعنف فازداد جفاء لها ثم هجرها غير مهتم بها فلاطفته بالحكمة فعاد اليه بعض الرشد واذ خافت من عودته الى ما كان فيه واتلافه حاله بملاهي باريز واشراكها

اقنعته بوجوب مغادرتها والذهاب الى قصره لي روشه في بريتانيا فسار واياها بعد ان مرّ على زواجهما سنتان واقاما في هذا القصر ثلاثة اعوام ولد لها فيها ولدان صبي وبنت . وهكذا فضلت الاقامة في بلاد يضيق الصدر من كثرة ضبابها وتضجر النفس من قلة ملاهيها بعيدة عن باريز ومسراتها لتقي زوجها اشراك الهوان بيد انها رجعت اليها عندما دُعي الى فرقته وكانت في خدمة الملك وما اشد ما كان شؤم هذا الرجوع عليها فان المركيز رجع الى اتباع اهوائه فهجرها وتعلق قلبه بحب الفتاة نينون دي لنكلو الجميلة المشهورة فانفق عليها امواله وعبثاً حاولت المركيزة انقاذه من غروره وايقافه عن بلوغ المهالك فاضطرت اخيراً ان تغادر العاصمة الى لي روشه فاخذت معها ولديها وتركته وحده فيها ولما بلغها انه تبارز مع خصم له في الغرام وجرح جرحاً بليغاً كتبت اليه رسالة الزوجة الامينة والمحبة الغفورة انما الرسالة لم تصل الا بعد وفاته التي كان سببها الجرح وكانت الضربة القاضية على آمالها فتأثرت كثيراً وساءته من اعماق فوادها وبادرت حالاً بالتوسل الى نينون دي لنكلو لتعطيها صورته وخصلة من شعره وما برحت مقيمة على حفظ ولائه ثابتة في محبته تتأثر لذكره ويغمى عليها من مشاهدة قاتله ولم ترضَ بالاقتران بغيره بعده وان تكن ترملت وهي في الثالثة والعشرين فقط كما انها لم تشرك في حبه احداً سواه على انه لم يترك لها ذكراً مجيداً ولم يبق من ثروته وثروتها الا القليل مما آل بها الى حرمان نفسها وولديها كثيراً من الامور ودعاها الى تغيير طريقة معيشتها واكتفائها بما لم تتعود عليه من قبل

ولما رأت ان لا بد لها من الرجوع الى باريز لتؤسس مستقبلاً مجيداً لنجلها لا يصل اليه الا اذا اتصل ببلاط الملك رجعت اليها واقامت فيها مكرّمة محترمة فكانت تتردد الى البلاط الملوكي ونوادي الباريزيين العالية تباحث العلماء وتناظر

الحكماء وتساجل الادباء وتمازح الشبان باسمة باشة دون ان تدع لاحد مجالاً لسوء الظن بها فتعاشر الناس وتجالس الجميع وتفارقهم محبين بها يذكرونها باطيب الصفات ولا همَّ لها غير ترقية عقلها وتوسيع معارفها وتربية ولديها وتهذيبهما وتعليمهما وادارة رزقها وتدبير منزلها . دخلت نادي مدام رمبوليه المشهور بكونه مجتمعاً لارباب العلم والادب مع اهل الخلاعة والمجون قبل ان تترمل وكانت فيه مثالاً للامانة والفضيلة مع هجر زوجها لها ورأت فيه من الاعجاب بها والثناء عليها والتقرب منها ما يذهب بغيرها في بوادي الاغترار ويثنيهنَّ عن المنهج القويم اما هي فلم تكترث الا للعلم والادب ولم تشارك زوار النادي الا بهما حتى نعتها البغاة زوراً بالتكبر وجفاف ماء الوجه . وهذا كان شأنها بعد الترمل في كل النوادي وقد صار الباريزيون يهتمون بها اهتماماً جزيلاً ويشعرون بغيابها ويسرون بحضورها فاحلوها المقام الاول في انديتهم وعززوها كثيراً بمقدار ما تستحق فكانت حيثما حلت (على ما روى المقتطف الذي نعتمد عليه في بعض مواد سيرتها) عفيفة الازار محمية الجانب كانها الشمس تتحاماها النواظر وتعجز الاكف عن الدنو منها

عاشرت اعظم الناس وصادقت افضلهم دون ان تهمل امور منزلها وولديها بل قامت بواجباتها نحوهما وادَّتهما حقوقهما من التربية والتعليم والتهذيب وكان بين اصدقائها عدد وافر من نخبة الشعراء والفلاسفة والحكماء والامراء مثل كورنيل وراسين ومولير ولافونتين وبوالو وارنولد وباسكال وبوردالو وماسكارون وبوسيه ودي رتز ومونتروز وروشفوكول والمرشال تورن وكولبر وكونده وفريق من جلة السيدات الشهيرات مثل دوقة لونغفيل ومدام دي منتنون ومدام دي مونتسبان وكونتس دولون ومدام دي لافايت . وكانت تتأثر من

العمل اكثر من الكلام فاستفادت من سيرة امرة انولد الزاهدة اكثر مما استفادته من مواعظ ابلغ الوعاظ وأُعجبت بالكردينال دي رتز لاعتبارها نفسه اسمى من نفوس الغير ولفضائل رأتها فيه منها وفاؤه لكل ديونه ومقدارها مليون فرنك ومداومته للصلاة في كل يوم وفطوره مع خدمة الدين في الصيامات

وقد امتازت بفضيلة نادرة المثال وهي المحافظة عَلَى ولاء الصديق الى النهاية ولو تضررت بسببه . مثال ذلك انها ناصرت صديقها فوكه وزير مالية فرنسا عندما غضب عليه الملك وحكمت عليه حكومته بالسجن مدى الحياة واهتمت به اهتماماً وافراً ولم تخشَ باس احد لعلمها بان الملك لم يعامله بهذه المعاملة الا غيرة منه عَلَى حب فتاة يحبها جلالته لا جزاءً لما اتهم به من الاختلاس ولم يثنها عن صداقته وعدٌ ولا وعيد مع ما لحقها من الاذى حتى اتصل بكريمتها فلم يجسر ولا شاب شريف الاصل عَلَى الاقتران بها لعدم رضى لويس الرابع عشر عن امها ومما يؤثر عنها ان فوكه وهو في قمة مجده طلب يدها ولم تكن بعد قد تزوجت بالمركيز دي سفينيه فردته خائباً لعدم محبتها يومئذ له الا انها بعد ذلك عرفته جيداً فصادقته وكانت له في بؤسهِ افضل نصير شأنها مع كثيرين من البائسين

لم تشتغل بالسياسة كثيراً بل وجهت جلَّ اهتمامها الى الاداب وكان لآرائها واقوالها تأثير جميل في معاصريها كما ان رسائلها لا تزال تؤثر في الناس الى اليوم وقد مرَّ عَلَى كتابتها نحو مئتين واربعين سنة . وهي لم تكتبها بقصد النشر بل كانت بصفة خصوصية توافي بها كريمتها بعد زواجها ومفارقتها اياها مع زوجها الكونت غرينيان عندما تعين والياً عَلَى بروفنس مدفوعة الى ذلك بواعل الشوق اليها وحباً بتسليتها وإخبارها بحوادث باريز وافادتها بما فيها من العبر وما ينبغي لامٍّ ان تعلمه لابنتها . وهذا ما خلد ذكرها وعزَّز اسمها لان هذه الرسائل

فاقت بكثير من الامور عَلَى رسائل الكاتبين الشهيرين بلزاك وفواتير التي كان لها شهرة بالغة الحدّ في اواخر الجيل السادس عشر واوائل السابع عشر وامتازت عَلَى رسائل الشهيرة مدام دي منتنون المملوءة من الحزم والتعقل والنثر الطبيعي اللطيف واللهجة الجدية . امتازت عليها بالتفنن والحماسة وحسن الاسلوب وغير ذلك مما ينير البصائر ويهذب الاخلاق حتى عدّت كاتبتها من ربات الاقلام ونوابغ الكتاب . فمدحها الكتاب كثيراً وقدروها حق قدرها ولم يذكروا النثر المرسل الا وارتسم اسمها في مخيلاتهم واقتبس بعضهم طريقة انشائها واقتفوا اثر اسلوبها لاعتبارهم اياه من الطبقة الاولى وقال احدهم لما قرأ رسائلها وهو في الهند وأُعجب بها كل الاعجاب ان تاشيتوس المؤرخ الروماني ومكيفلي الكاتب الايطالي لم يكتبا احسن من فصل اشار اليه من فصولها الجميلة . وشبهها لامرتين بتراك الشاعر الايطالي بقوله انها بتراك النثر الفرنساوي وقال في ما كتبه عنها ان قبرها كان رسائلها لانها وضعت نفسها فيها . وقد طبعت هذه الرسائل مراراً عديدة وجمعت في عشرة مجلدات

وكأن الزمان ابى الا معاندة مدام دي سفينيه مذ ابصرت نور الوجود فمات ابوها في طفوليتها ولحقت به امها بعد خمس سنوات ولم يُعش زوجها بعد اقترانها به اكثر من ثمانية اعوام هجرها في اثنائها مرتين واذاقها من مضض خلاعته وتهتكه ما قرّح اجفانها ولوّع قلبها لا سيما لوفاته جريحاً عَلَى اثر مبارزته خصماً له في الغرام فترملت في ريعان صباها وعنفوان شبابها واضطرت لتضييق دائرة معيشتها بالنسبة لما بقي من ثروتها التي بذّرها المركيز مع ثروته . واثارت غضب الملك عليها بمصادقتها لاناس يكرههم حتى لم يعد احد يتجرأ عَلَى الاقتران بابنتها من كانت آمالها بهم عظيمة عَلَى ان جلالته أُعجب بجمالها كثيراً انما لم يكن

اعجابه بها مفيداً لها واخيراً اضطرت الى الرضى بالكونت غرينيان عَلَى كهولته وترمله مرتين مكتفية بمكارم اخلاقه وشرف اصله وغناه بعد ان فاتت سن الزواج المألوف بين الاشراف بضع سنوات وكانت العروس بالنظر لحسن تربيتها وجودة تعليمها راقية العقل واسعة المدارك كريمة فاضلة تبرهن ما كانت عليه الام من النبل والفضل . اما ولدها فقد مرَّ عليه مدة كان فيها ثالثة الاثافي عَلَى امه اذ انه سار بضع سنوات عَلَى اثار والده فتهتك وفجر ولم يرتدع حتى عن التعلق بمن كانت سبب قتل ابيه وهي في السنة الخمسين من عمرها فبذر امواله في الخلاعة ثم تطوع لمساعدة اهالي سسيليا في اخذ جزيرة كريت من يد العثمانيين وامتاز بالحرب الا انه عاد الى باريز وبالنظر لما كان قد تأسس عليه في حداثته بالتربية والتعليم من جودة المبادىء الي لم تفوَ معايب الشباب عَلَى افلاته من عقالها تماماً مع كل طياشته وبما ان والدته بذلت جهدها لارجاعه عن غيه وتغلبت عليه بحكمتها وذكائها انتبه لحاله فغير طريقه وتزوج بفتاة غنية شريفة وعاش معها بوفاق وهناء شادياً واياها اطرب الالحان بمدح والدته وشكرها

وطال غياب الكونتس غرينيان عن امها المركيزة دي سفنيه سبعة عشر عاماً لم ترَها فيها الا قليلا فكانت الام تكتب الى الابنة ثلاث رسائل في الاسبوع او اربع وقد تكتب لها رسالة او رسالتين في اليوم الواحد ولم تتوقف عن ذلك الا ثلاث مرات كانت فيها عندها وتعبدت في اواخر حياتها مثل سيدات عصرها وكانت تذهب الى الكنيسة كل يوم مرتين وتوالي الاعتراف بشوق ورغبة

اما وفاتها فكانت بسبب ابنتها وذلك انها مرضت بداء عضال فبلغ الخبر امها فاسرعت اليها وقامت بتمريضها بنفسها مدة ثلاثة اشهر في الليل والنهار فأثر التعب والسهر في صحتها وانهكا قواها فاصيبت بالجدري وماتت بها . اتمابعد